الباب الثالث

اتجاهات النقاد في رواية القبح

الفصل الأول

الإعراض عن رواية الشعر الفاسد

يُعَدُّ الأصمعي (ت ٢١٦هـ) من أقدم النقاد الرواة التزاماً بمنهج الإحسان في رواية الشعر ونقده، إذ كان لا ينشد ولا يفسر شعراً فيه هجاء[١]، لما جاء في الأثر «مَنْ روى هجاءً مقذعاً فهو أحد الشاتمين». وهذا الالتزام منسجم مع تدينه الذي صار معه «صاحب سنة» «غير متهم في شيء من دينه»[٢] ونال به درجة «صدوق»[٣] عند الفقهاء والمحدثين، حتى عدَّه ابن حجر في الطبقة التاسعة من أتباع التابعين إذ يقول: «صدوق سني في الطبقة التاسعة من أتباع التابعين كالشافعي ويزيد بن هارون وعبد الرزاق وغيرهم»[٤].

والتزام الأصمعي بحدود النهي الوارد في شعر الهجاء هو الالتزام نفسه بالإمساك عمّا فيه ذكر للأنواء؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذكرها لتعلقها بأديان الجاهلية، فضلاً عن حذره من الخوض في تفسير آيات القضاء والقدر، أو الكلام في الصرف والعدل وما أشبه مما كان يموج فيه مجتمعه آنذاك[٥].

وكان موقف الأصمعي من نقائض جرير والفرزدق تطبيقاً عملياً للإحسان في

---

(١) المبرد: الكامل ج٢/٢٦.

(٢) ابن قتيبة: المعارف ص٥٤٣.

(٣) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ١٨٨.

(٤) ابن حجر: تقريب التهذيب: ١/٥٢٢ وشذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢/٣٨.

(٥) انظر د. جلال حجازي: الأصمعي واتجاهه الخلقي في الرواية والأدبية ٢١٦-٢١٨.

منهجه، حيث أضرب عن رواية شعرهما، بل امتنع عن ذكر شطر بيت لجرير، وهو يوازن بين الشاعرين، على الرغم من حاجة الحكم النقدي الموازن إلى النموذج أو المثل الشعري. قال أبو حاتم: سمعت الأصمعي يقول: تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة، وكان يكابر، وأما جرير، فما علمته سرق إلّا نصف بيت، قال: ولا أدري، ولعله وافق شيء شيئاً، قلت: وما هو؟ فقال: هجاء، ولم يخبرنا به، قال أبو حاتم: وقد رأيته أنا بعد في شعره، والبيت:

يقصر باع العاملي عن العلا البيت[1]

وترك حكم الأصمعي بين الشاعرين مجالاً متبايناً بين أهل العلم في الأخذ به والرد عليه، وغاية ما يقال فيه ما قاله المرزباني: «ولسنا نشك أن الفرزدق قد أغار على بعض الشعراء في أبيات معروفة، فأما أن نطلق تسعة أعشار على شعره سرقة، فهذا محال، وعلى أن جريراً قد سرق كثيراً من معاني الفرزدق، وقد ذكرنا ذلك في أخباره»[2].

غير أن ما يعنينا قوله في هذا الحكم هو أن النقائض بتلاحم عناصر بنائها من حيث قوة اللغة وفحولتها خاصة عند الفرزدق، وجمال الصورة وإبداع بنائها، وجدة معانيها، لم تنازع في تغليب معيار العقيدة وغلبته لاتجاه الفن، ولم يكن لجاذبية الشكل وجماله تأثير في عدم تحييد قبح الهجاء وتنحية سوءاته. على الرغم من أن التنازع بين العقيدة ومطالب الفن أو الفصل بين الشكل والمضمون أمر بالغ الصعوبة، خاصة عند من خبر العربية وأدبها رواية ودراية وتذوقاً وتحليلاً ونقداً، وكان علماً عليها مثل الأصمعي.

وفي الدلالة على تميز موقف الأصمعي في أخذه بالإحسان منهجاً في رواية هذه النقائض، يذكر موقف نظيره أبي الخطاب الأخفش الذي كان «أعلم الناس بالشعر

(١) المرزباني: الموشح ١٦٧-١٦٨.

(٢) المصدر نفسه ١٨٣.

وأنقدهم له، وأحسن الرواة ديناً وثقة»[1] فقد أخفض منزلة جرير عن منزلة الفرزدق بمعيار خلقي فني إذ أنه «لم يهجه إلا من ثلاث جهات كاذبات، فردد ذلك وكرره في شعره، وهي القين والزبير وجعثن، فلم يجاوز جرير هذا ولم يحسن فيه» ورفع شأن الفرزدق بمعيار فني محض «ولا نجد للفرزدق قصيدة إلا وفيها هجاء بديع ليس في الأخرى مثله كقوله:

إن الـذي سمـك السمـاء بنى لنـا بيتـاً دعـائـمـه أعـز وأطـول

. . . الأبيات

وقوله:

فإنـك إذا تهـجـو تمـيمـاً وتـرتشي تبـاين قيس أو سحـوق الـعـمـائـم
كمـهـريق ماءٍ بالـفـلاة وغـرّة سراب أجـالـتـه رياح الـسـمـائم[2]

والفرق بين هذين الراويتين هو الفرق بين فقهاء التابعين في الإضراب عن سماع الهجاء إحساناً، والإقبال على إنشاده إباحة، فالحسن البصري لا يطيق سماع هجاء الفـرزدق حتى في إبليس، وذلك حين أتى الفرزذق إليه فقال: إني هجوت إبليس فاسمـع، قال: لا حاجـة لنا فيما تقول، قال: لتسمعن أو لأخرجن فأقول للناس: الحسن ينهى عن هجاء إبليس، فقال الحسن: اسكت فإنك عن لسانه تنطق»[3].

أما سعيد بن المسيَّب فقد أُنشد تهاجي جرير وعمرو بن لحي، فجعل يقول: أكله، أكله، يعني: أكله جرير، ولم ينكر مما سمعه شيئاً»[4].

واستمـع ابن سيرين إلى شعـر جرير فلم ينكره، غير أن رجلاً ترك الأخذ عنه لذلـك، إذ عدّه ممن يستمع إلى الباطل، قال ابن سلّام: «أخبرني عبد الملك بن

(١) المصدر السابق: ١٩٣.

(٢) المصدر السابق: ١٩٦.

(٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٣٣٦.

(٤) الحصري: ذيل زهر الآداب ص٣٤.

عبد العزيز الماجشوني عن يحيى بن زيد قال: دخل رجل على الحسن فسمعه يقول: والله الذي لا إله إلاّ هو لتموتن... قال: فقلت هذا حلاف، فخرجت من عنده فأتيت ابن سيرين، فإذا عنده جرير ينشدة ويحدثه، قلت: هذا صاحب باطل! فتركتهما فندمت»[1].

فهذه أخبار تتردد بين إنكار شعر النقائض والعزوف عن سماعه وبين قبول إنشاده من غير بأس، والمُنْكِرُ فيها عدَّ الهجاء قبحاً واعتبره شرّاً، ولعل المبيح فيها نظر إليه نظرة امتاع وتسلية ليس الإيذاء فيه بمقصود، أو نظره بتظاهر صاحبه بالقدرة على الايذاء كما يقول المظفر بن الفضل العلوي: «ومتى أنشدك شاعر هجاء قد مزق به عرض مسلم، أو عرض عليك سبّاً قد قذف به حرمة بريء مستسلم، فإنما قصد بذلك يريك حُمَّته، ويذيقك سمامه، ويعرفك كيف يُفوِّق سهامه، ويخوفك ميسمه، ويحذرك مكواته»[2].

لكن الأصمعي لم ير في نقائض جرير والفرزدق فناً جديراً بالعناية والرواية على الرغم من علو شأن التجويد الفني فيه، ورعاية الرواة له بالرواية والنقد؛ لأنه سباب محض، وانتهاك للحرمات، وقذف كاذب للمحصنات، بأقبح المعاني، وأفحش الصور، ذلك أن القبح في هذا اللون من الآثار الأدبية لا يمكن قبوله أو التعطف عليه والاستمتاع به، إلا بعد هدم الثوابت الأساسية في النفس المتمثلة بالعقل والوجدان والأخلاق.

ويتوحد مع هذا الموقف الصريح الإضراب عن رواية شعر النقائض عند الأصمعي موقف مضمر الإضراب عن رواية شعر الهجاء وشعر العقائد الفاسدة، وإن علا شأنه من إحكام الصنعة والإجادة الفنية.

---

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٣٣٧.

(٢) نضرة الإغريض في نصرة القريض: ٣٦٧.

فالحطيئة الذي أتقن صنعة فنه الشعري بالتحكيك والتثقيف جرياً على منهج أستاذه زهير، لا يجد الأصمعي بداً من الإعلان عن رأيه في أن هذا الجمال لم يستطع أن يُعَفِّي على فساد مضامينه وقبحها، الذي تَأَتَّى من طمعه بما في أيدي الناس فكان مطيته إلى سوء الظن بهم، والاقذاع في هجائهم والانتقاص من شأنهم، فقد قال الأصمعي وقد أنشد شيئاً من شعر الحطيئة: «أفسد مثل هذا الشعر بهجاء الناس وكثرة الطمع»[1] وكذلك كان حال الفرزدق «أفسد شعره بهجاء الناس»[2].

وإذا كان شعر الهجاء مرفوضة روايته لإيذائه المسلمين في عامتهم، فكيف إذا كان مقولاً في سلف هذه الأمة ممن رضي الله عنهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

لا شك أن إيذاء الصحابة إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والنيل من مكانتهم أو العدوان عليهم سباً وتجريحاً وطعناً خروج عن جادة العقيدة وانحراف عن منهجها القويم، وممن يمثل هذا الاتجاه الفاسد شعر السيد الحميري الذي كان مفرطاً في «سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه في شعره، ويستعمله في قذفهم والطعن عليهم»[3].

فهل يفرض جمال الفن واتقانه مسوغاً في رواية هذا الشعر؟!

كان الأصمعي مؤتلف النظرة النقدية فكرياً وعملياً، حين جعل القبح صارفاً عن الميل نحو روايته، وهابطاً بمستوى الشاعر ومنزلته الفنية، خاصة إذا كان ظاهرة ملموسة باطراد في شعره، ولذلك لم يشفع للسيد الحميري عند الأصمعي ترسمه خطى الأوائل في غلبة الطبع على مسلكه الفني، فهو يقول: «قاتله الله! ما أطبعه وأسلكه لسبيل الشعراء! والله لولا ما في شعره من سبّ السلف، لما تقدمه من طبقته أحد»[3].

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ج٢/ ١٧٠ ط دار الكتب وفحولة الشعراء ص٥١.

(٢) الأصمعي: فحولة الشعراء ص ٢١.

(٣) الأصفهاني: الأغاني ٢٣٢/٧.

وتكشف محاورة الأصمعي لتلميذه التَّوَّزي في مروية أخرى عن الإحسان في منهج الرواية عنده، وذلك بالإضراب عن روايته، يقول التَّوَّزي: «رأى الأصمعي في يدي جزءاً فيه شعر السيد الحميري، فقال: لمن هذا؟ فسترته عنه، لعلمي بما عنده فيه، فأقسم على أن أخبره، فأخبرته، فقال: أنشدني قصيدة منه، ثم أخرى، وهو يستزيدني، ثم قال: قبحه الله! ما أسلكه لطريق الفحول، لولا مذهبه، ولولا ما في شعره، ما قدمت عليه أحداً من طبقته»[1].

بذلك عدل الأصمعي عن رواية شعر السيد الحميري بعد أن أزرى عليه بالقبح (قبحه الله) وهجّنه بفساد الاعتقاد (سب السلف)، ولم تكن الفحولة لتغريه بالحياد عن الإحسان في الرواية والنقد على الرغم من أنها معياره المفضل في الموازنة بين الشعراء.

وعلى الرغم من أن بعض الرواة من معاصري الأصمعي أخذهم الإعجاب بشعر السيد الحميري فرووه بالمقياس الفني دون الخلقي مثل أبي عبيدة الذي كان يستحسنه ويرويه[2]، فإن الإعراض عن رواية شعره كانت ظاهرة عند أكثر الرواة، يقول الكتبي عنه: «وكان أحد الشعراء الثلاثة الذين لم يضبط ما لهم من الشعر كم، هو وبشار وأبو العتاهية، وإنما مات ذكره، وهجره الناس، لسبه الصحابة، وبغض أمهات المؤمنين، وإفحاشه في قذفهم، فتحاماه الرواة»[3].

مما تقدم يمكن القول إن الأصمعي رسخ اتجاهاً نقدياً تطبيقياً في منهج الإحسان، بالإعراض عن رواية الشعر الفاسد، وإن حسن شكله، وأتقنت صنعته؛ لأن الجمال في تصوره إلف متعادل البناء بين جمال الشكل ونقاء المضمون من خبث المعنى وسوء التصور، فالجودة الفنية لا يمكن أن تستر عوار المعنى، أو تلغى فساد

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٢/١٦٨ والأغاني ٧/٢٣٦.

(٢) الأصفهاني: الأغاني ٧/٢٣٦.

(٣) محمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ١/٣٣ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

التصور، مهما يكن شأن الإحاطة بمطالب الفن والصنعة عالياً قوياً.

وقد يقال إن الأصمعي لم يكن منسجماً مع اتجاهه هذا فيما انتخبه من قصائد في أصمعياته، خاصة في مروياته من الهجاء.

والحق أن الأصمعي انتخب مجموعة شعرية من ثنتين وتسعين قصيدة لواحد وسبعين شاعراً أغلبهم من الجاهليين[1]، وانتظمت هذه القصائد أغراض الشعر العامة: الفخر والمدح والرثاء والغزل والوصف والهجاء، وللاتجاه الخلقي حضور في هذا الانتخاب بوجه عام[2]، حتى في مجال الهجاء، إذ حرص الأصمعي على ما يصور القيم الخلقية عند العرب فخراً ومدحاً ورثاءً، وما يكشف عن القبح ذماً عند افتقادها أو تجاهلها، فالصورة الجمالية للعرب في هذه المنتخبات تجمع الحسن إيجاباً وثناءً، والقبح سلباً وذماً.

وإذا كان الاختيار في الهجاء «أن ينسب المهجو إلى اللؤم والبخل والشدة وما أشبه» من الصفات النفسية «وليس بالمختار أن ينسبه في الهجاء إلى قبح الوجه وصغر الحجم وضؤولة الجسم»[3] وما أشبه من الصفات الجسدية، فإن مدار مقطوعات الهجاء في الأصمعيات حول الضعف والهزيمة على الرغم من الاستعداد والتظاهر بالقوة[4]، والضعة والحمق[5]، ولؤم الطبع عند رجل اعتراه ضيف على بؤس وجوع فبدلاً من أن يقريه قام إليه ضرباً متواصلاً[6]:

---

(١) عدد الشعراء الجاهليين في الاصمعيات ٤٤ شاعراً والإسلاميين ٦ والمخضرمين ١٤ والمغمورين ٧.

(٢) انظر د. جلال حجازي: الأصمعي واتجاهه الخلقي ص ٤١٠-٤٢٩.

(٣) أبو هلال العسكري: الصناعتين ص ١١٠.

(٤) الأصمعيات ص ١٤٤.

(٥) الأصمعيات ٢٣٢ الأصمعية رقم ٨٩.

(٦) الأصمعيات ص ١٦٣ الأصمعية رقم ٥٧.

كيف قريت ضيفك الأزَبَّا
لمـا أتـاك بائسـاً قِرْشَبَّا
ينشدك الزَّادَ وكنت الزَّبَّـا
قمت إليه بالقفيل ضَرْبـا.

ولكن هذا الهجاء الذي انتخبه الأصمعي لا يخلو من حدّة أو بعض الفحش في الصورة دلالة أو إيماءً، كقول الأسعر الجعفي يهجو إخوته لأبيه ويرميهم بأنهم آثروا تزويج أمهم بعد تسمينها[1]:

أبـلغ أبـا حُمْـرانَ أن عشـيرتـي ... ناجـوا ولـلقـوم الـمنـاجين التَّـوى
باعـوا جوادهـم لتـسـمـن أمَّـهـم ... ولـكـي يعـود على فراشـهـم فتى
عِلْجٌ إذا ما بَزَّ عنـهـا ثَوْبَـهـا ... وتـخـامـصـت قالـت له: ماذا ترى

أو كقول زبَّان بن سيَّار[2]:

وإن قتـيلاً بالـهـبـاءة في اسـتـه ... صحـيفـتُـهُ إن عادَ للظُّلم ظالِـمُ
متى تَقْـرَؤُوهـا تهـدكم من ضلالكم ... وتـعـرف إذا ما فضَّ عنهـا الخـواتم

غير أن هذا اللون من الهجاء لا يحتل رقعة كبيرة في القصيدة، بل هو لمحة سريعة، ينعطف إليها الشاعر، لكنه لا يقف عندها طويلاً، ومن أمثلة ذلك قصيدة أوس بن غلفاء الهجيمي يهجو ابن الصعق الكلابي، فبعد أن هجاه بأنه (كثير الجهل شتّام الكرام) (أسلح من حبارى) في الخوف، وما إلى ذلك من الصفات، رماه وقومه بقتل جارهم لفعله الفاحشة بأمهم[3]:

---

(١) الأصمعيات ص ٤١ الأصمعية رقم ٤٤.
(٢) الأصمعيات ص ٢١١ الأصمعية رقم ٧٤.
(٣) الأصمعيات ص ٢٣٢-٢٣٣ الأصمعية رقم ٨٩.

قتلتم جاركم وقذفتموه بأمِّكُمُ، فما ذنب الغلام
ألا من مبلغ الجرمي عني وخير القول صادقة الكلام
فهلا إذا رأيت أبا معاذ وعلبة كنت فيها ذا انتقام
أراه مجامع الوركين منها مكان السرج أثبت للحزام[1]

ولفهم حقيقة هذا الانتخاب تجدر الإشارة إلى عدة أمور، منها أن الأصمعي كان مولعاً بالغريب لغة وتركيباً وصورة ومعنى، وقد تخصص في ذلك وغلب على طلبه في الرواية، حتى قال الجاحظ: «طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه»[2]، ولا شك أن في معاني الهجاء السابقة وصوره غرابة وندرة، ولعل مما يؤيد ذلك أن الأصمعي أنشد أصحابه أرجوزة غريبة طريفة النهج، هجا فيها صخير بن عمير زوجته حين عابت عليه فقره وشيخوخته[3]:

أبقى الزمان منك ناباً نَهْبَلَهْ
ورحماً عند اللقاح مقفلهْ
ومضغة باللؤم سمّاً مَبْهَلَهْ

ولما كان الأصمعي يقصد إلى جلاء الصورة العربية للقيم، كان القبح وسيلة لتجسيد الحُسْن؛ لأنه شذوذ عن جادته، وغرابة في صورته، إذ بضدها تتمايز الأشياء، فإكرام الجار صورة مشرقة في الحياة العربية، أما العدوان عليه فهو الصورة القبيحة الشاذة، وكذلك الحال في إكرام الضيف عند حلوله، والهجوم عليه بالضرب، إنهما صورتان متباينتان، ففي الصورة الشاذة خروج على اطراد الصورة المشرقة.

---

(١) في هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة إشارة إلى أسر الجرمي وإركابه خلفه على عجز الفرس، هذا وقد فهم بعض الباحثين هذه الأبيات على غير حقيقتها فقال: «فكم ساءني أن وقعت عيناي على الأبيات الثلاثة اللاحقة للبيت السابق» ظناً منه أنه يصف الفاحشة وموضعها؟!
(انظر د. جلال حجازي: الأصمعي واتجاهه الخلقي في الرواية الأدبية ص ٤٢٨).

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين. ج٤/٢٣.

(٣) الأصمعيات ص ٢٣٤ الأصمعية رقم ٩٠.

ولعل من مبررات نماذج الهجاء في الأصمعيات المقصد إلى الشاهد والمثل، في اللغة والمثل والأخلاق العربية والحياة الجاهلية بجوانبها المختلفة، حيث ما زالت الأصمعيات مصدراً تاريخياً موثوقاً يستقي منه العلماء والباحثون الشواهد والأمثلة، لأنها ذات سند عال في التسلسل والصحة.

زد على ذلك أن نماذج الهجاء هذه جاهلية، وهي مما عفي عنه كما سبقت الإشارة إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم لحسان: «أنشدنا من شعر الجاهلية، فإن الله قد وضع عنا آثامها في شعرها وروايته» فهي بقصد الحكاية والتعليم، فلا تمس اتجاه الإحسان في الرواية عند الأصمعي.

على أن أغلب قصائد الهجاء في الأصمعيات هي مما ورد في المفضليات (٧١-٨٩) وزيدت على الأصمعيات[1]، فهي من انتخاب المفضل الضبي لا الأصمعي.

وأعرض أبو اسحاق إبراهيم بن علي الحُصْري القيرواني (ت ٤٥٣هـ) عن شعر ابن الرومي في هجاء أبي علي سليمان الأخفش غلام أبي العباس المبرد، فيقول في ذلك: «ولابن الرومي في الأخفش إفحاش صنت الكتاب عنه»[2] ويطرد موقفه هذا من الهجاء في النثر أيضاً فيما دار بين بديع الزمان الهمذاني وأبي بكر الخوارزمي، إذ يقول عن رسالة البديع إليه، التي قهره فيها وبهره وبكته حتى أسكته: «وهي طويلة فيها هنات صنت الكتاب عنها»[3].

وإعراض الحصري عن رواية الفاسد من الشعر شامل، إذ أنه ينكر المجون ويعدل عن روايته ما دام فاحشاً، فقد أورد شعراً لراشد بن اسحاق بن راشد المكنى بأبي حكيمة في مذكر:

---

(١) انظر الأصمعيات (حاشية التحقيق) ص ٢٠٨.

(٢) زهر الآداب تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١/٤٨٨.

(٣) زهر الآداب ١/٤٧١.

تحـيرت في أمـري وإنـي لواقـف ... أجيل وجـوه الـرأي فيك ومـا أدري
وإنـي وإن أعـرضـت عنـك لمنـطو ... على حرق بين الـجـوانـح والصـدر
إذا هاج شوقـي مثلتـك لي الـمنى ... فألـقـاك ما بيني وبـينـك في ستـر
تصـبـرت مغلوبـاً وإنـي لمـوجـع ... كمـا صبـر الـظمآن في البلد القفـر

وروى له شعراً غزلاً آخر:

ضحكت ولـو تدرين ما بي من الهوى ... بكـيت بمـحـزون الـفـؤاد كئيب
. . . الا بأبي العيش الذي بان فانقضى ... ومـا كان من حسـن هنـاك وطـيب
ليالـي يدعـونـا الـصبـا فنـجيبـه ... ونـأخـذ من لذاتـه بنـصـيب
نردد مسـتـور الأحـاديث بيننـا ... على غفـلة من كاشـح ورقـيب
إلى أن جرى صرف الحوادث في الهوى ... فبـدل منـا مشـهـد بمـغـيب

ثم قال: «وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره صنت الكتاب عن ذكره»[1].

ومذهب الحصري في رواية الرفث يقوم على الاتزان، إذ لم يطلق للأمر حبلاً على غاربه، ولا أنكر القليل منه تنويعاً في التأليف، واستطراداً في الترغيب، خاصة فيما كان في موضع لا تحسن فيه الكناية «فليس في كل موضع أعزك الله تحسن الكنايات عن لفظ فحش، ولا بكل مكان يجمل الإعراض عن معنى وحش. . .»[2] فقد حصر هذا الأمر في أضيق جوانبه من القصد إلى الترويح والتنويع والمحافظة على روح الملح وسمة الطرف، يقول الحصري في ذلك «ولو كنت هنا إنما آتي بما فيه ركـانـة وأصـالة، دون ما فيه سخافة ورذالة، لأزال عن الملح اسمها، وارتفع عنها وسمهـا، وخـرجت عن حدودهـا، وأفلتت من قيودهـا، ولا بد من توشيحـه بلطائف من الجد، وظرائف من القصد، تتعلق بأغصانه، وتتشبث بأفنانه، ليكون استراحة للناظر،

---

(١) زهر الآداب ٢/ ٦٥٨-٦٥٩.

(٢) جمع الجواهر (ذيل زهر الآداب) ص ٥٢.

وإجماماً للخاطر، كما يملُّ الجد، فيدخل فيه الهزل، وكذلك يمل الرقيق فيحتاج إلى الجـزل، والله استغفر مما شغل به الخاطر، وأتعب له الناظر، وصرف إليه الفكر، واستخدم فيه السرّ، فما غيره أعم فائدة، وأتم عائدة، فهو الرؤوف الرحيم، والجواد الكريم»[1].

ومع هذا الوضوح في القصد والإحسان في النهج، فقد أنكر اتجاهه بعض من نظر في إعراضه عن رواية ذلك، بل وجّه أمر التنويع إلى غير وجهه المراد إذ يقول: «وقـد صرحت بانكـار هذا المنهـج في «مـدامـع العشـاق» وبينت هناك أن حرص الحصري على الأخلاق، ضيّع علينا ما أعرض عنه من الآثار الأدبية، وكنا في حاجة إلى أن نعرف كل ما ترك الأولون.

وأحب أن يعلم القارىء أن المجون لون من ألوان الغذاء التي تحيا بها العقول، فكمـا أن الأجسام تحتاج في تغذيتها إلى المواد المختلفة، والعناصر المتنوعة من الملح والحلو والمر، كذلك العقول نحتاج في تغذيتها إلى المعارف المتباينة من جد القول وهزله، وحلوه ومرّه، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

على أن الحصري لم يخل كتابه من المجون، بل من فاحش المجون، وللقارىء أن يتتبع ما وقع من ذلك في ألفاف الكتاب، ليرى كيف غلب المؤلف على أمره فأباح ما لا يباح»[2].

وموقف الحصري في الإحسان غير متباين من رواية الشعر الفاسد، فكما أضرب عن رواية شعر الهجاء والمجون، فهو معرض عن رواية الشعر الخارج على الدين، المارق من العقيدة، الذي يورث صاحبه الكفر؛ لأن الوزر جامع للراوية والسامع معاً، يقول الحصري: «وقد تجنبت أن أهدي إليك، وأورد عليك، ما يخرج به قائله في

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٤.

(٢) د. زكي المبارك، زهر الآداب (مقدمة التحقيق ص ١٧).

الـدين، عن اتبـاع سبيل المؤمنين، فمن أهـل الالحـاد والأهـواء، من يسـرحوا في ارتقـاء، ويطلب ما يشفي به من دائه، ويضحك خاصة أودّائه، ويغر به من ضعفت نحيزته، ونحفت غريزته، بما يكمنه، بألطف ما يمكنه، كمون الأفعوان في أصول الريحان، إذا قابله بشمه، قتله بسمه، كما حكى الجاحظ عن الشرقي القطامي. . . ومثل هذا كثير، مما لو ذكرته، لدخلت فيما أنكرته، فقد قيل الراوية أحد الشاتمين، كما قيل السامع أحد القائلين»[1].

وبـالمقولة ذاتها «الراوية أحد الشاتمين» أعطى ابن بسام الشنتريني (ت٥٤٢) اتجاه الإعراض[2] عن رواية الفاسد من الشعر، أبعاداً نقدية موضوعية، حيث يعرض بالشـرح لمواطن الفساد، ويعلل مواضع القبح، فقد أضرب عن رواية شعر الهجاء صوناً لكتابه عن أن يكون ميداناً للسفهاء، لأن على الراوية وزر ما يحمل، وإثم ما ينقل، فهو ظهير الشاعر في الشتم والسباب، خاصة «أنهم قالوا إن الراوية أحد الشاتمين»[3].

غير أن ابن بسام ميّز بين لونين من الهجاء، أضرب عن أحدهما فلم يرو منه شيئاً، وأباح الآخر لأنه تعريض فيه مندوحة ورخصه، فروى منه جانباً لأهل الأندلس، يقول ابن بسام في ذلك: «والهجاء ينقسم قسمين: قسم يسمونه هجو الأشراف، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً، ولا هجراً مستبشعاً، وهو طأطأ قديماً من الأوائل، وثل عرش القبـائـل، وإنمـا هو توبيخ وتعيير، وتقـديم وتأخير، كقول النجاشي في بني العجلان، وشهرة ذلك تغني عن ذكره، واستعدوا عليه عمر بن الخطاب، وأنشدوه قول

---

(١) جمع الجواهر (ذيل زهر الآداب) ص ٣.

(٢) وكان الحميدي (ت ٤٨٨هـ) ممن أعرض عن رواية الهجاء في تراجمه للشعراء التزاماً بالإحسان ومنهجـه، فيقول في ترجمته لليحصبي: «ولليحصبي عندي أهاج قبيحة كرهت أن أوردها». (جذوة المقتبس ص٤٠٩).

(٣) الذخيرة ق١ م١ ص٦٠ (ط القاهرة).

النجاشي فيهم فدرأ الحدّ بالشبهة، وفعل مثل ذلك بالزبرقان حين شكا الحطيئة . . . »[1].

«والقسم الثاني : هو السباب الذي أحدثه جرير وطبقته، وكان يقول : إذا هجوتم فاضحكوا، وهذا النوع لم يهدم قط بيتاً، ولا عيرت به قبيلة، وهو الذي صنا هذا المجموع عنه، وأعفيناه أن يكون في شيء منه، فإن أبا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمته ما شانه وسمه، وبقي عليه إثمه»[2].

ورفض ابن بسام لنقائض جرير والفرزدق وما شابهها من السباب، يجعله رديفاً للأصمعي في موقفه النقدي الجاد من هذا اللون من الهجاء، غير أن قبوله للقسم الأول «هجو الأشراف» الذي عدّه تعييراً وتوبيخاً؛ يظل مدعاة للنقاش والمجادلة، لأنه لا يقل في الإساءة عن القسم الثاني «السباب» وإن غايره في طريقة التعبير، وقصده إلى التوبيخ والتعيير، أما طريقته في التعبير فهي التي عدّها ابن بسام تعريضاً، ومع اعتراف ابن بسام بأنه يَصِمُ بالأذى والسوء من قيل فيه، إلّا أنه يخلي قائله من التبعة إذ «لا أدب فيه على قائليه، ولا وصمة أعظم على من قيل فيه»[3].

وأما قصد هذا اللون إلى التوبيخ والتعيير فيتراءى في مضمونه القائم على ثلب القيم والمثل والأعراف التي سادت الجاهلية، «فهو لم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً، ولا هجراً مستبشعاً» على الرغم من أنه «طأطأ قديماً من الأوائل، وثل عرش القبائل». ويضرب ابن بسام لذلك أمثلة بقول الحطيئة في الزبرقان :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وقول النجاشي في بني العجلان :

---

(١) الذخيرة ق١ م١ ص٥٤٤ (ط بيروت).

(٢) الذخيرة ق١ م١ ص٥٤٦.

(٣) الذخيرة ق١ م١ ص٥٤٤.

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
. . . الأبيات

ويتخذ ابن بسام مقولة النقاد السابقين في تصوير موقف عمر بن الخطاب «درأ الحدّ بالشبهة»[1] ذريعة في الرضى عن هذا اللون من الهجاء من غير التفات إلى الحدّ الذي حدث عمر نفسه بإقامته، أو الحبس الذي انتهى الشاعران إليه جزاء إقذاعهما.

ومن عجب ألّا يضرب ابن بسام عن رواية هذا اللون من الشعر على الرغم من أن النماذج التي تخيَّرها، والتمس صداها في أهل الأدب والنقد، شاهدة على الرفض دون الرضى.

فعبد الملك يقول مغلظاً لصدى قول الأعشى:

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

«احفظوا أنسابكم يا بني أمية، فما أود أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، وأن الأعشى قال فيّ: . . . . البيت»[2].

ولما سمع علقمة بن علاثة هذا البيت بكى وقال: أنحن نفعل هذا بجاراتنا؟! ودعا عليه، فما ظنك بشيء يبكي علقمة بن علاثة، وقد كان عندهم لو ضرب السيف لما قال حَسِّ[3].

وتألم الراعي من قول جرير:

فغض الطرف إنّك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

---

(١) انظر العمدة ١/٥٢ زهر الآداب ١/٥٥.

(٢) الذخيرة ق١ م١ ص٥٤٥.

(٣) حَسِّ: كلمة تقولها العرب للشيء إذا أوجع.

إذ طار البيت في أحياء العرب ومدنها، فيقول في تصوير ذلك «فما وردنا ماء من مياه العرب إلّا وسمعنا البيت قد سبقنا إليه، حتى أتينا حاضرة بني نمير، فخرج إلينا النساء والصبيان يقولون: قبحكم الله وقبّح ما جئتمونا به»[1].

ولعل ابن بسام في قبول هذا اللون المؤلم من الهجاء تعمق مقاصد العرب منه في المحافظة على القيم الأساسية في حياتهم، إذ الخروج عليها فيه مساس بالأصالة، وعدوان على الشرف، ونزوع عن القيم والمبادىء التي حرص العربي على سيادتها والاتصاف بها والانتساب إليها، كالكرم والإحسان إلى الجار ورعايته، وأصالة النسب وعراقته، فالهجاء والحال هذه مرتبط باختلال المنهج العام في قوم من الأقوام، وتعيير بما أصاب النموذج والمثال من هبوط في سلوك الفرد أو القبيلة، فالشرف والرفعة وما إلى ذلك من صفات الجميل الثابت شوهه التفلت من الالتزام به بالقبح والسوء والرداءة.

وهذا اللون «هجو الأشراف» أو الذم بعدم الالتزام بقيم الشرف والمبادىء العامة، مهذب في أدائه، بعيد في أسلوبه عمّا عرف في القسم الثاني «السباب» من تهافت في التناول، وقبح في التعبير، إذ يتخذ السخرية والاستهزاء أسلوباً في الايذاء والايجاع، كما قال جرير: «إذا هجوتم فأضحكوا» وهو مؤسس على الابتذال في كشف العورات، والتندر بذكر السوءات، يقول الراعي النميري «هجوت جماعة من الشعراء ما قلت فيهم ما تستحي العذراء من إنشاده في خدرها»[2].

قد يكون لإعجاب ابن بسام بهذا اللون ما يبرره من صدق الرماية والإصابة إذ يقول: «فما لام من أدّب وإن أوجع، ولا سبَّ من صدق وإن أقذع»[3].

وكان الأجدر بابن بسام أن يلحق هذا اللون من الشعر «هجو الأشراف» بسباب

(١) الذخيرة ق١ م١ ص٥٤٦.

(٢) الذخيرة ق١ م١ ص٥٤٥.

(٣) الذخيرة ق٤ م١

جرير والفرزدق؛ لأنهما من باب واحد في الكذب والبهتان والبغي والعدوان، فكيف يستقيم الموقف من شعر ينتقص من شرف الناس، ويطامن من مجدهم بأبيات تجري أمثالاً في مجالسهم، فيضحى المقول فيه أضحوكة وأمثولة؟! وكيف تستقيم هذه الإباحة وصاحب هذا الشعر وأمثاله يعدّ من الأشرار لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «شر الناس رجل هاجى رجلاً فهجا القبيلة بأسرها»؟ إن مثل هذا الشعر منعه الإسلام ونهى عن أن يتخذ زاداً في الرواية أو عدّة لأحاديث المفاكهة في المجالس.

وأياً كان نصيب تقسيم ابن بسام من الإصابة والدقة فإن موقفه مطرد في الاضراب عن شعر الهجاء الشخصي، ففي تناوله للعلاقة بين المعتمد بن عباد وأبي بكر بن عمار أورد قصيدة لابن عمّار في القدح في المعتمد بن عباد وآله وذويه أولها:

ألا حيّ بالعرب حياً جلالا ... أناخوا جمالاً وحازوا جمالا
وعرّج بيُومينَ أُمَّ القرى ... ونَمْ فعسى أن تراها خيالا
لتسألَ عن ساكنيها الرَّمادَ ... ولم تر للنار فيها اشتعالا

قال ابن بسام: «وبعده ما أضربت عنه، رغبة بكتابي عن الشين، وبنفسي أن أكون أحد الهاجيين، فقد قالوا: الراوية أحد الشاتمين»[1].

ومن الشعراء الذين أضرب ابن بسام عن شعرهم للسبب ذاته من الهجاء أبو محمد عبد الله بن صاره الشنتريني، على الرغم من قدرته الفنية في ذلك، إذ يقول: «وقد رأيت له عدة مقطوعات في الهجاء تربي على حصى الدهناء، وهو فيها صائب السهم، نافذ الحكم، طويت عليه كشحاً، وأضربت عن ذكره صفحاً، وربما ألمعت منه بالأقل، لترى فتستدل، ولو استجزت أن أثبت في هذا الكتاب بعض ما له في هذا الباب، لتحققت أنه بالجملة بائقة محاجاة، وصاعقة مهاجاة، وقد كتبت من ذلك في كتابي المترجم ذخيرة الذخيرة، جملة موفوره، ولطوائف كثيرة»[2].

---

(١) الذخيرة ق٢ م٢ ص ٤١٤-٤١٥.

(٢) الذخيرة ق٢ م٢ ص٨٣٥.

وبالمعيار ذاته الذي يعد الجمال والإحسان معادلة متوازنة بين إجادة الشكل ونقاء المضمون أسقط ابن بسام شعر السمسير في الهجاء على الرغم من جودة بنائه، وتصرفه في معانيه، يقول عنه: «كان يافعة عصره، وأعجوبة دهره... وله طبع حسن، وتصرف مستحسن في مقطوعات الأبيات، وخاصة إذا هجا وقدح، وأما إذا طول ومدح فقلما رأيته أفلح ولا أنجح، وقد أثبت ذلك بعض ما تخيرته له هنالك، وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره من القدح في أهل عصره، صنت الكتاب عن ذكره»[1].

على أن إخلاص ابن بسام لهذا الأسلوب من منهج الإحسان غير خالص من آثار الأندلسيّة ومنهجيتها في التعريف بأدب الأندلس والمفاخرة به[2]، ففي الوقت الذي أضرب فيه عن رواية شعر الهجاء للسمسير وابن صارة الشنتريني فقد روى من ذلك نماذج في كتاب آخر أسماه ذخيرة الذخيرة يدل على ذلك قوله: «وقد كتبت من ذلك في كتابي المترجم ذخيرة الذخيرة، جملة موفورة ولطوائف كثيرة» وقوله: «وقد أثبت ذلك بعض ما تخيرته له هنالك». وما هذا الاختيار إلا ليثبت جوانب الشاعرية الأندلسية في متعدد الأغراض تحقيقاً لغاية الشاهد وطلب المثل «وربما ألمعت منه بالأقل، لترى فتستدل...».

وكما أضرب ابن بسام عن شعر الهجاء فقد عزف عن رواية الموشحات الأندلسيّة لأسباب ذات تعلق بالإحسان من جهات ثلاث[3]: الأخلاق أولاً، وموسيقى الشعر ثانياً، واللغة ثالثاً، وقد ضمن ذلك في حديثه عن أبي بكر عبادة بن ماء السماء إذ جعل تخصصه فيها إذهاباً لحسناته يقول: «وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها، ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة هذا

---

(١) الذخيرة ق١ م٢ ص ٨٨٢-٨٨٣.

(٢) انظر الفصل الخاص بذلك «النقد المنهجي» الدفاع عن أدب الأندلس، في كتابي تيارات النقد الأدبي في الأندلس ص٢٨٩-٣٢٨.

(٣) انظر كتابي تيارات النقد الأدبي في الأندلس ص ٤٢٦-٤٢٨.

منآدها، وقوّم ميلها وسنادها، فكأنها لم تسمع بالأندلس إلّا منه، ولا أخذت إلّا عنه، واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته، وذهب بكثير من حسناته. وهي أوزان أكثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب.

وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا، واخترع طريقتها فيما بلغني محمد بن محمود القبري الضرير، وكان يضعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز، ويضع عليه الموشحة دون تضمين ولا أغصان. .

وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان، إذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب»[1].

فابن بسام يدلل على أثرها الخلقي السيّء بقوله: «وهي أوزان أكثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب، تشق على سماعها مصونات الجيوب، بل القلوب» فقد جاءت موشحات عديدة فيها كثير من الفحش والتهتك وانحطاط في الألفاظ والمعاني معاً، حين مارس بناءها ونظمها عدد من الشعراء من أهل البذاءة، لم يتحرجوا من ذكر الرذائل الملازمة لروح العوام فضمنت موضوعات تخدش الحياء والحشمة، وفي موشحات ابن حزمون خير دليل على ذلك[2].

فالموشحات إذا أخذت بمقياس الخلق فهي منحرفة عن جادة الشعر القويم، وفي لغتها القائمة على العامية والعجمة انحراف آخر عن صفات أدب العرب ولغتهم، أما الانحراف الثالث فخروجها على المطرد من موسيقى الشعر العربي وأوزانه التي منحها استقراء الخليل بن أحمد صفة الثبات والاطراد، شأن اللغة وقواعدها النحوية، ولذلك فالخروج على هذا الاستقرار والثبات قصد إلى هدم الأدب ولغته، وفي ذلك

(١) الذخيرة ق١ م١ ص ٤٦٩-٤٧٠.

(٢) الجديد في فن التوشيح د. عدنان صالح مصطفى دار الثقافة قطر ١٩٨٦ ص١١١.

من الإساءة إلى التراث والانحراف عنه ما لا يخفى وضوحه.

ولابن خلكان (ت ٦٨١هـ) موقف مطرد في تراجمه صدر فيه عن ورع وإحسان، حين عمد إلى تنقية مختاراته من النصوص التي يوردها في تراجمه من كل ما فيه فحش أو سخف، ولم يكن هذا الأمر لديه عارضاً، بل تعددت مواقفه في هذا المجال تعدداً يعطيها طابعاً منهجياً، ويمكن تمييز ظاهرتين متداخلتين في إضراب ابن خلكان عن رواية الفاسد من الشعر:

الأولى: التنبيه الصريح على الهجاء والفاحش والسخيف من المجون بالإضراب عنه.

الثانية: الإشارة إلى اتجاه الشاعر والإعراض عن رواية أي بيت من شعره لغلبة القبح عليه.

من ذلك عزوفه عن رواية شعر ابن التعاويذي في الهجاء، إذ يقول في العلاقة بينه وبين ابن المعلم: «وكان بينهما تنافس شديد، وهجاه ابن التعاويذي بأبيات جيمية أجاد فيها، ولا حاجة إلى ذكرها»[1]، وكذلك كان موقفه من شعر ابن التعاويذي في هجاء الأبله البغدادي الشاعر المشهور، حيث أفحش فيه، فقال ابن خلكان: «فأضربت عن ذكره مع أنها أبيات جيدة»[2].

ومعنى ذلك أن الجودة الفنية في نظر ابن خلكان غير مذهبة ولا ملغية عن الشعر الفاسد قبحه، يؤكد ذلك ابن خلكان نفسه في شعر ابن التعاويذي الحسن الجميل، فبعد أن أورد مقاطع من شعره في المدح قال: «وإنما أوردت هذه المقاطيع من شعره لكونها مستملحة، وأما قصائده المشتملة على النسيب والمدح فإنها في غاية الحسن»[3].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٥/ ص٦ تحقيق إحسان عبّاس.

(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص ٤٦٥.

(٣) المصدر نفسه جـ ٤/ ٤٧١ طـ إحسان عبّاس.

وبهذه اليقظة الواعية لذاتية القبح، التي لا يزيل عنها الاحتيال بضروب الفن وأساليب الجمال واقعية الحال وموضوعية الصفة، جرى ابن خلكان في رواية شعر ابن الحجاج (الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج)، إذ ترجم له بالقول: «الكاتب الشاعر المشهور ذو المجون والخلاعة والسخف في شعره، كان فرد زمانه في فنه، فإنه لم يسبق إلى تلك الطريقة، مع عذوبة الألفاظ وسلامة شعره من التكلف، ومدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء، وديوانه كبير أكثر ما يوجد في عشر مجلدات، والغالب عليه الهزل، وله في الجد أيضاً أشياء حسنة»[1].

وينصرف ابن خلكان عن هزل ابن الحجاج القبيح إلى جدّه الحسن الجميل، ويستأنس لمنهجه القائم على الإحسان بمنهج الشريف الرضي الذي يجمع التشيع بينه وبين ابن الحجاج، فيقول: «وقد أفرد أبو الحسن الموسوي المعروف بالرضي من شعره في المديح والغزل وغيرهما ما جانب السخف، وكان شعراً متخيراً حسناً جيداً، ومن جيد شعره وجدت هذه الأبيات:

يا صاحبي استيقظا من رقدة ... تزري على عقل اللبيب الأكيس
هذي الممجرّة والنجوم كأنها ... نهر تدفق في حديقة نرجس
وأرى الصبا قد غلست بنسيمها ... فعلام شرب الراح غير مغلس
قوما أسقياني قهوة رومية ... من عهد قيصر دنها لم يمسس
صرفاً تضيف إذا تسلط حكمها ... موت العقول إلى حياة الأنفس

وأورد له أيضاً

يا من إليها من ظلمها الهربُ ... ردي فؤادي فقلَّ ما يجب
ردي حياتي إن كنت منصفة ... ثم اليك الرضا أو الغضب
طلبت قلبي فلم أُفْتَك به ... سبحان من لا يفوته الطلب[2]

---

(١) المصدر نفسه جـ٢/١٦٨.

(٢) المصدر السابق ٢/١٦٩.

وأضرب ابن خلكان عن هجاء ابن الحجاج للفقيه الشافعي أبي سعيد الاصطخري واكتفى بالإشارة إليه بقوله: «وتولى حسبة بغداد وأقام بها مدّة، ويقال إنه عزل بأبي سعيد الاصطخري الفقيه الشافعي، وله في عزله أبيات مشهورة لا حاجة إلى إثباتها ها هنا»[1].

وبالاتجاه ذاته تعامل ابن خلكان مع شعر أبي الرقعمق الأنطاكي (أحمد بن محمد) الذي كان «بالشام كابن حجاج بالعراق، وممن تصرف بالشعر في أنواع الجد والهزل» فلم يذكر من شعره الهازل شيئاً، بل اقتصر على تسعة عشر بيتاً من قصيدة رائية في مدح أبي الفرج يعقوب بن كلّس وزير العزيز بالله الفاطمي التي يقول فيها:

قد سمعنا مقاله واعتذاره ... وأقلناه ذنبه وعثاره
والمعاني لمن عَنَيْتُ ولكن ... بكِ عرَّضْتُ فاسمعي يا جاره

ومن مديحها:

لم يدع لي العزيز في سائر الأر ... ض عدوّاً إلّا وأخمد ناره
كل يوم له على نوب الدهـ ... ـر وكرّ الخطوب بالبذل غاره

وما روى ابن خلكان هذا القدر من القصيدة إلّا لأن أبا الرقعمق «أحد المداح المجيدين والشعراء المحسنين» فأكثر شعره في ذلك جيد»[2].

وأنصف ابن خلكان أيضاً ابن عنين (ت ٦٣٠هـ) انصافاً بيناً من حيث تفرده بالإجادة الفنية بين شعراء عصره حيث «كان خاتمة الشعراء، لم يأت بعده مثله، ولا كان في أواخر عصره من يقاس به، ولم يكن شعره مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد، بل تفنن فيه، وكان غزير المادة من الأدب، مطلعاً على معظم أشعار العرب»[3].

---

(١) المصدر السابق ٢/١٦٩.
(٢) المصدر السابق ١/١٣١. (٣) المصدر السابق ٥/١٤.

غير أن هذا الثناء المنصف في الإبانة عن منزلة الشاعر وشعره لم يحمله على اختيار نماذج من شعره؛ لأن الهجاء كان فنه الغالب عليه، وقد نفاه السلطان صلاح الدين رحمه الله من دمشق بسبب وقوعه في الناس «وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً من رؤساء دمشق سماها مقراض الأعراض»[1] بل إن ابن خلكان لم يأخذ عنه شيئاً على الرغم من أنه قابله في رحلته وأنه كان «من أظرف الناس وأخفهم روحاً وأحسنهم مجوناً»[2].

ولم يرو ابن خلكان من شعره إلا بيتين قالهما لما أُخرج من دمشق، وبعض أبيات من قصيدة رائية يستأذن فيها الملك العادل بدخول دمشق بعد موت صلاح الدين.

وشأن المجون والسخف شأن الهجاء في دلالته على رقة العقل والدين والمساس بحرمات الناس في ذواتهم وأعراضهم، والعبث الذي لا طائل تحته، ولذلك أضرب ابن خلكان عن روايته.

فشعر أبي نواس كما يرى ابن خلكان «عشرة أنواع، وهو مجيد في العشرة، . . . وقد اعتنى بجمع ديوانه جماعة من الفضلاء. . . فلهذا يوجد ديوانه مختلفاً، ومع شهرة ديوانه لا حاجة إلى ذكر شيء منه»[3].

وإضراب ابن خلكان عن مجون أبي نواس لم يصرفه عن انتخاب بعض المعاني التي أحسن فيها، فقد أورد له شعراً يدل على قوة البديهة والارتجال، وأبياتاً سائرة في وصف الدنيا التي قيل فيها «لو وصفت الدنيا نفسها لما وصفت بمثل قول أبي نواس». . . ومن شعره الفائق المشهور قصيدته الميمية التي حسده عليها أبو تمام:

يا دار ما صنعت بك الأيام لم يبق فيك بشاشة تستام

---

(١) المصدر السابق ٥/١٤.

(٢) المصدر السابق ٥/١٧.

(٣) المصدر السابق ٢/٩٦.

وأعجب ابن خلكان بأبيات لأبي نواس في حسن الظن بالله فقدم لها بقوله: «وما أحسن ظنه بربه عز وجل حيث يقول:

تكثـر ما استـطعت من الخـطايا إذا كان الـقـدوم على كريم

وقال وهي من رواية أخرى:

ستبصـر إن وردت عليه عفـواً وتـلقـى سيداً ملكـاً كبـيرا

تعض ندامـة كفـيك ممـا تركت مخـافـة النـار السـرورا

وعقب عليها بقوله: «. . . وهذا من أحسن المعاني وأغربها»[1].

وتحدث صاحب الوفيات عمّا كان بين البارع الدباس (ت ٥٢٤هـ) والشريف أبي يعلى بن الهبارية من مداعبات لطيفة، وأن الشريف كتب للبارع قصيدة يعاتبه فيها وأولها:

يا بن ودي وأين مني ابـن ودي غيرت طرفـه الـرياسـة بعـدي

ولم يورد شيئاً بعد هذا البيت. وعلل لإضرابه عن ذلك بقوله: «ولولا ما أودعه من السخف والفحش لذكرتها»[2].

وبعـد ذلـك عرض لجواب البارع الدباس عليها بقصيدة «ختمها أيضاً شيئاً من الفحش» وأولها:

وصلت رقعـة الشريف أبي يعـ ـلى فحلت محـل لقياه عندي

. . . الأبيات[3]

وانتخب منها ابن خلكان ثمانية عشر بيتاً لخلوها من الفحش والسخف، وأمسك

---

(١) انظر المصدر السابق ٢/ ٩٧ـ٩٨.

(٢) المصدر السابق ٢/١٨١.

(٣) انظر المصدر السابق ٢/١٨٢.

عن ذكر بقيتها وعلل لذلك بقوله: «ونقتصر من هذه القصيدة على هذه الأبيات، ففيها سخف لا يليق ذكره، وغيره مما لا حاجة إليه»[1].

ولما كان صريع الدلاء (أبو الحسن علي بن عبد الواحد ت ٤١٢هـ) «يسلك في شعره مسلك أبي الرقعمق» في الهزل والسخف والمجون، لم يذكر ابن خلكان من شعره شيئاً، إلّا بيتاً واحداً جاء في سياق ما نقله من كتاب جنان الجنان للقاضي الرشيد (أحمد بن الزبير) الذي عرف بمذهبه فقال: «وله قصيدة في المجون ختمها ببيت لو لم يكن له في الجد سواه لبلغ به درجة الفضل، وأحرز معه قصب السبق وهو قوله:

من فاتـه الـعـلم وأخـطأه الـغـنـى فذاك والـكـلب على حال سوا[2]

ولم يكن اعتماد ابن خلكان على كتاب جنان الجنان سبباً في قلة ما رواه من شعر صريع الدلاء؛ لأن نسخة من ديوانه كانت بين يديه وقرأها بنفسه إذ يقول: «ورأيت نسخة من ديوان شعره أنه أبو الحسن محمد بن عبد الواحد القصار البصري»[3]. ولكن مذهب ابن خلكان أكد مذهب القاضي الرشيد في الإعراض عن رواية القبيح من الشعر.

ومن الشعراء الذين غلب على اتجاههم القبح فلم يجد له ابن خلكان شيئاً من الحسن متميزاً ليرويه، شُميم الحلي (أبو الحسن علي بن الحسن بن عنتر بن ثابت) الذي «كان أديباً فاضلاً خبيراً بالنحو واللغة وأشعار العرب، حسن الشعر، مدح الأكابر وأخذ جوائزهم» وعلة ذلك أنه «كان بذيء اللسان، كثير الوقوع في الناس مسلطاً على ثلب أعراضهم، لا يثبت لأحد في الفضل شيئاً» ونقل ابن خلكان عن ابن المستوفي في تاريخ اربل ما يبرر عزوفه عن شعره، إذ أنه قبح ذكره بأشياء نسبها إليه «من قلة الدين، وتركه للصلوات المكتوبة، ومعارضة القرآن الكريم، واستهزائه بالناس». وعلى الرغم من ذكره مقاطيع من شعره، فإن ابن خلكان قال: «وفي شعره تعسف»[4] مبرراً

---

(١) المصدر السابق ٢/١٨٣.
(٢) المصدر السابق ٣/٣٨٤.
(٣) المصدر السابق ٣/٣٨٤.
(٤) المصدر السابق ٣/٣٣٩.

لعدم موافقته لابن المستوفي فيما رواه من شعره، ولم يشفع له عنده أنه «كان فاضلاً» أو «جم الفضيلة» أو مادحاً للاكابر، ما دام فضله ومدحه لم يصرفاه عن ايذاء الناس وانتقاصهم.

بقي أن نشير إلى أن تراجم ابن خلكان التي أعرض فيها عن رواية القبح تكشف عن عدد من مؤرخي الأدب ونقـاده ممن أخذوا بهذا المنهج قبل ابن خلكان، مثل الشريف الرضي، القاضي الرشيد أحمد بن الزبير.